رابطة العالم الإسلامي

الأمانة العامة

الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

الثقافة الإسلامية وتحديات العصر
الواقع والمأمول

إعـداد

الدكتور حسن بن مبارك مسكين

أستاذ المناهج وتحليل الخطاب بجامعة شعيب الدُّكالي - المغرب

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ - ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ
٢٨ - ٣٠ / سـبتمبر / ٢٠١٤ م

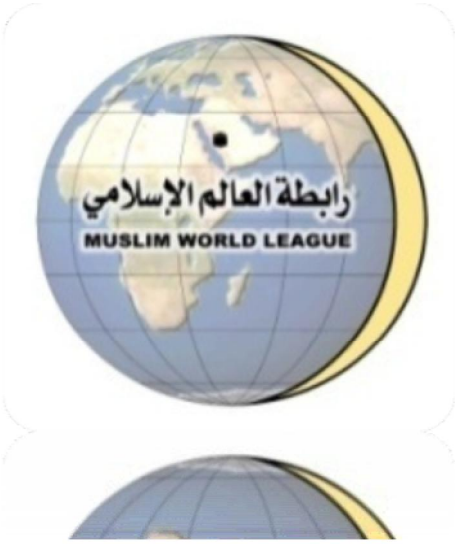

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق كله، فجعله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً، وجعل فيه الأُسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد المصطفى الأمين، وعلى آله الأطهار المَيامين، ومَن تبِعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

تعود أهمية الثقافة في حياة الفرد والمجتمع والأمة إلى الدور الذي تقوم بها في صيانة القيم والعقيدة وأنماط السلوك الإنساني واللغة والهوية والانتماء، بل إنها تشكل رؤية المجتمع كله لحاضره ومستقبله، بِناءً على ما تراكم لديه من خبرات ومعارف وعلوم وآداب وفنون، وتصورات عن الكون والحياة والموت والبعث والجزاء؛ في بوتقة منتظمة، تُسهم فيها كل شرائح المجتمع، غير أن مدلولاتها تختلف من حضارة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، استناداً إلى الأسس التي تقوم عليها، والمنطلقات التي تحددها، والغايات التي ترمي إليها.

غير أن ما يميز الثقافة في المنظور الإسلامي؛ كونها تقوم على خصائص جامعة لكل ما يمثل المعرفة؛ من فكر وعلم وحكمة وروح ومادة وقيم، سواء أكانت تحصيلاً أم إنجازاً أم تلقيًا، بما يُثمر صلاحًا ونماءً وعمارةً للأرض، وبناءً للإنسان أيًا كان وحيثما وُجد، وذلك عبر تأكيد وجوب إشاعتها لكي تَسري ويعم نفعُها الإنسانيةَ كلها، ويعم خيرُها الكونَ قاطبة، باعتبار ذلك واجبًا شرعيًا لا مجرد اختيار، إذ العلم لُبُّ الثقافة وأساسها، ولا ينبغي احتكاره أو إخفاؤه في الرؤية الإسلامية مادام يشكل عماد التقدم وأساس التحضر والمانعَ

من التخلف، سواء أكان ذلك في التصور أو السلوك والعمل الذي لا يقتصر على الماضي أو الحاضر فحسب، بل يهم المستقبل ومآلات الإنسان الذي هو بؤرة الثقافة وأساسها.

يحاول هذا البحث الإجابة عن التساؤلات التالية:

- لماذا أغلب المحاولات التي سعت إلى إنتاج مشروع عربي إسلامي ثقافي تنموي، لم يُكتب لها النجاح، أو بقيت مجرد رغبات ولم تتحول إلى إنجاز حقيقي؟
- ولماذا لم تتمكن النخَب المثقفة الإسلامية حتى اليوم من الوصول إلى هذا الهدف المعلن منذ سنين عديدة؟
- وهل لذلك ارتباط بوضعية المثقف العربي الإسلامي في علاقته بمختلف البِنى والمؤسسات الأخرى؟ أم يعود ذلك إلى أزمة مفاهيم أو أزمة مثقفين أو أزمة قيم أو أزمة تواصل منتج وفعال يمكّن الأمة الإسلامية من إنجاز هذا التحدي الذي يواجهها في مجالات عديدة خاصة في الفترة المعاصرة؟

إن الحديث عن الثقافة في بعدها التنموي، هو حديث عن حضور أو غياب مشروع أمة بكاملها في سياقٍ عالمي، يعيش الآن تحولات سريعة في شتى الميادين، بحيث يستحيل بقاء مجتمعات لا تزال تعتمد في ضمان وجودها واستمرارها على التبعية للغير.

١- الثقافة الفاعلة عنوان نهضة الأمة:

الثقافة هي: «النتاج الذي ينتظم جماع السمات المميزة لأمة، من مادية وروحية وفكرية وفنية ووجدانية، وتشمل مجموعة من المعارف والقيم والالتزامات الأخلاقية المستقرة فيها، وطرائق التفكير والإبداع الجمالي والفني والمعرفي والتقني، وسبل السلوك والتصرف والتغيير وطراز الحياة، كما تشمل تطلعات الإنسان للمُثل العليا، ومحاولته إعادة النظر في منجزاته والبحث الدائم عن مدلولات جديدة لحياته وقيمه ومستقبله، وإبداع كل ما يتفوق به على ذاته»[(١)]؛ فإذا انطلقنا من ذلك؛ أدركنا أن الثقافة هي كل ما تملكه الأمة حين تنخرط في عملية البناء الحضاري لإثبات الذات في مسيرة النماء الإنسانية، وهي التي تسِمها بميسم العلم النافع الخلاق والمعرفة النيرة، تمشياً مع مبدأ الاستخلاف الذي أقره الحق تعالى؛ الهادف إلى تحقيق التنمية الشاملة.

وإذا استوعبنا الأساس البنيوي لمفهوم التنمية، المستند إلى شموليتها وقيامها على شرط الحرية والمعرفة ودعمهما في عملية دائمة وجدلية بينها وبين كل المجالات التي تقوم عليها حياة الأمة واستمرارها منتجة؛ نكون قد أسّسنا منطلقاتٍ سليمةً، ومهَّدنا لوعيٍ عميقٍ بأهمية هذين المفهومين المركزيَين، بوصفهما الضامنَ الأساس لإنجاز التحدي الكبير نحو تخليص شعوبنا من التخلف والتبعية وكل ما من شأنه تعطيل تجربة رائدة تدفع باتجاه التطور وخَلق مناخ إيجابي يجعل من بلداننا العربية والإسلامية فضاءً للعلم والمعرفة، تمهيداً لإنجاز تنمية شاملة لم تعد مرتبطة بمستوى الدخل الفردي أو مستوى ارتفاع الناتج السنوي القومي فحسب؛ وإنما أيضاً بالمستوى المعرفي والثقافي

(١) تعريف اعتمدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

والصحي والاجتماعي والديمقراطي لأي أمة، بما يكفَل لأفرادها إنجاز مشاريع وتصورات وأفكار حرة ومسؤولة، في ظل دعمٍ قوي لمثقفيها قصد مواصلة هذا الإنجاز بما يؤدي إلى تطوير شعوبها وضمان مشاركتهم في بناء نهضة أمتهم،غير أن هذه الثقافة في المنظور الإسلامي كما التنمية؛ محكومة بضوابط أخلاقية وقيم ربانية تميزانها عن التصورات المادية الأخرى[١].

وإذا كانت الثقافة الغربية قد أنتجت نظاماً رأسمالياً، ليبرالياً يُعلي من الحرية المطلقة والذاتية المتوحشة والاستهلاك الفاحش، فإن هذه الليبرالية قد انتهت أخيراً إلى ما أطلق عليه الدكتور المهدي بِنْعَبُّود رحمه الله: الجاهلية المعاصرة التي اجتمع فيها ما تَفرق في جاهليات التاريخ البشري كله؛ بما في ذلك جاهلية قابيل وهابيل إذ عن الإنسان إنه ذئب للإنسان، وجاهلية قوم نوح بالعقوق وتفكك الأسرة والعصيان. وجاهلية قوم إبراهيم بكثرة الأصنام وتفاقم الوثنية، وجاهلية قوم لوط بما فيها من بشاعة ووقاحة، وجاهلية ما قبل الإسلام من جهل وظلام وتفكك وعنف ووثنيات[٢]؛ كلها أفرزت ظواهر شاذة، وسلوكاً غير سوي، وعلاقات غريبة، تخرق الفطرة البشرية، وتسيء إلى آدمية الإنسان، وتستفز قيمه، وإذا كان الإعلان الغربي قد نجح في نشرها على نطاق واسع مستغلاً الثورة الكبرى التي حدثت في مجال الاتصال؛ فقد آن الأوان للتحذير من خطورة ذلك حتى لا يكتسح البلادَ الإسلامية ويدمر منظومة القيم السائدة فيه، لاسيما لدى الشباب المسلم الذي نحن مطالبون بتحصينه من سموم ذلك

(١) انظر: روح الحداثة د. طه عبد الرحمن، ص، ١٥-١٦- المركز الثقافي العربي –بيروت- الدار البيضاء- ط، ١-٢٠٠٦.

(٢) رصد الخواطر، أزمة الحضارة المعاصرة، ضمن الأعمال الكاملة ١/ ٦١ – مطابع إمريال- الرباط ٢٠٠٥.

الإعلام الغربي الفتاك بإمكاناته الهائلة المرصودة له، وسياساته المُمَنْهجة المتبعة فيه، ولا أدَلّ على ذلك من أن كثيراً من وسائل الإعلام الغربية تصف بعض المسلمين الذين تنَصَّروا في أوروبا بأنهم تحولوا إلى (مربّين) و(مستشارين) في كل ما له صلة بالعنف الذي تعرفه كثير من ضواحي المدن الأوروبية، فهويتهم المسيحية الجديدة أنها جعلت من أولئك المسلمين الذين ارتدُّوا عن الإسلام؛ فاعلين أساسين داخل المجتمعات الغربية، ونلاحظ أن صفتي التربية والاستشارة اللتين تلازمان المتنصِّر وأخلاقه؛ تسمحان له بأن يكون مربياً أي قدوة لغيره، كما تجعلانه حكيماً يمكن استشارته والرجوع إليه[١].

ويبدو أن بلداننا العربية والإسلامية لم تستطع تهيئة شعوبها للانخراط في هذا المشروع الحضاري، رغم إمكاناتها المادية والبشرية والطبيعية الهائلة ودعوات مفكريها في هذا الاتجاه.

وهكذا ظلت التنمية بالمفهوم السابق؛ مطلباً بعيد المنال، في ظل ما يشهده الواقع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي من أزمات خانقة ظهرت آثارها جلية في كثير من الميادين، كان من المفترَض فيها أن تدعم محاولات النهضة والخروج من دائرة التبعية والتخلف.

(١) من قضايا الإسلام والإعلام في الغرب، د. عبد الكريم بوفرة، ص ٧٠ – سلسلة روافد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط ١ – دولة الكويت، ٢٠٠٨.

٢- لا تنمية بدون ثقافة إسلامية أصيلة:

خلافاً لما يشاع في كثيرٍ من الأدبيات العربية التي تستبعد الفعلَ الثقافي من مشاريعها، حيث تنظر إلى كل ما هو ثقافي بنوعٍ من الازدراء والدونية المعلَنة أو الخفية، بحجة أنه قطاع غير منتِج يستنزف ميزانية الدول؛ فإننا نرى ضرورة تغيير هذا التصور السلبي الذي كرَّس قيماً مغلوطة ومشوهة عن الثقافة التي آمن بها كثير من منظِّري التنمية، مؤكدين أنها تندرج في قلب كل مشروع يَنشُد تحقيقَ تنمية شاملة تؤمن بالتكامل وتستبعد أي إقصاء أو تجزيء، ونُذكِّر بأن رواد التنمية أجمعوا على أن جوهر وكُنْه إشكالية التنمية ظاهرة ثقافية بالأساس، ثم إن تحقيق تنمية شاملة مرتبط بشرط نهضة ثقافية حقيقية[١].

هكذا قدم لنا المختصون البعد الأشمل والأعمق للتنمية في علاقتها البِنيوية بالثقافة التي هي الوجه الأنصع لكل فعلٍ تنموي متكاملٍ غيرِ مبتور، من خلال التركيز على أسسها الدينية والأخلاقية والمعرفية والقيَمية قديمها وحديثها، في انصهارٍ تام مع ثوابت الأمة، لكنَّ واقع الحال يؤكد أن الأمة بمثقفيها؛ تعيش أزمةَ تَواصُلٍ مع قيمها الأصيلة وثقافتها الخَصبة؛ أكثر من أزمة تواصلها مع ثقافات العالم، مما أحدث شروخاً في المشهد الثقافي العربي الإسلامي الذي كان منتجاً مِعطاءً، أغنى الحضارة الإنسانية وطبَعها بسماته المتفردة، فتأثرت بذلك جميع المجالات الأخرى وعُطلت فيها كثير من المبادرات المضيئة، وأُجهضت عديد من المحاولات الطموحة الرامية إلى استعادة مجد الأمة الإسلامية وإضافة منجزات ثقافية وحضارية مستمدة من روح العصر، غير منسلخة عن الجذور أو

(١) التنمية من منظور المشروع الحضاري، د. نصر محمد عارف – ص، ٥٧٥. مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠١- بيروت.

مفرطة في الثوابت، قادرة على بناء مشروع تنموي شامل.

ويبدو لي أن من وراء هذا التراجع في الرؤية والإنجاز أسباباً عديدة يَصعب تجاهلها في ظل ما يشهده العالم من تحديات وتطورات، منها انحصار الفعل الثقافي في كثير من بلادنا العربية والإسلامية؛ بشكلٍ جعَل الثقافة غريبة في أمة كانت من قبل سبّاقة إلى المعرفة والعلم والأمم الأخرى تعيش تخلفاً مضاعَفاً مادياً وروحياً.

وحركة التثقيف التي تتشبث بها كل الدول الطموحة نحو التنمية والتقدم؛ لم تقصر عند حدودها الأدبية والفكرية والفنية فحسب، بل تعدَّتها إلى مجال الاقتصاد والسياسة والمجتمع وكل الميادين التي تعكس الوجه المشرق لشعوبها، في حين توارى مفهوم التنمية عند العرب والمسلمين، وتم إقصاءُ هذا البعد الحيوي المهم، مما جعل الفعل المعرفي والتنموي يعيشان أزمة مستعصية مُركَّبة، آن الأوان لتوصيفها وتشريحها لإيجاد بدائل ممكنة تحْيي فيهم دَوْرَ الاستخلاف، وتُنمي فيهم روح المسؤولية في عمارة الأرض وتنميتها؛ حتى يستحقوا تلك الأمانة التي كلفهم الحق تبارك وتعالى بحَملها ونشرها في الناس جميعاً.

إن ازدهار الثقافة رهينٌ بازدهار مجالات أخرى في التعليم والصحة والإدارة والاقتصاد والمجتمع والسياسة وأساليب التفكير وخطط العمل،كما أن «نمو الثقافة هو عنوان التحضر ومقياس التقدم، ومؤشر على انتظام مسيرة التنمية في الاتجاه الصحيح، هي المظهر الذي يعكس ارتفاع معدل الرقي الفكري في هذا المجتمع، فإذا نمت الثقافة- بمعنى تطورت وتحركت وسايرت إيقاع التقدم العام في البيئة التي تنتمي إليها- كان ذلك إيذاناً بظهور عصرٍ جديد يأخذ فيه المجتمع بجميع فئاته، بأسباب الازدهار في شتى مجالاته، وليس النمو الثقافي حالة ذهنية أو وجدانية خالصة بقدر ما هو تعبير عن النمو الشامل الذي

يَعُـم الميـادين الأخـرى، ولا يمكـن أن يـتم نمـوٌّ ثقـافي بمعـزل عـن النمـو في المجالات جمعيها، لأن الثقافة لا تزدهر في فراغ، وإنما يتطلب نموُّها بيئةً مواتية، كما يتطلب أيضـاً إطاراً عامـاً لابد أن تراعَى فيه الشـروط الضـرورية لقيـام نهضـة ثقافية نامية، بحيث يضمن استمرار النمو واطِّراده وتصاعده وفق الوتيرة التي تستجيب لحركة التقدم في المجتمع بصفة عامة»[1]،وفي إطار النخب بصفة خاصة مادامت هي التي تقود المجتمع وتوجهه نحو المسارات الصحيحة عقائديـاً وفكريـاً وثقافيـاً ولغويـاً وإعلاميـاً، وبما يحصنه من أية تيارات هدامة وافدة.

(١) المستقبل يبدأ الآن، د. عبد القادر الإدريسي، ص ١١٠ – مطبعة النجاح الجديدة – ط١ – الدار البيضاء -٢٠٠٣.

٣- الثقافة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة:

المتأمل في واقع الأمة الإسلامية اليوم؛ تصدمه مفارقات صارخة تُكرس الأزمة وتُعمقها، منها: الازدواجية بين القول والفعل، أو بين ما يدّعيه المثقف وبين ما يُنجزه في الواقع، فالخطاب «يتَّسم في كثير من الأحيان بالمثالية والأخلاق والسمو، على حين أن السلوك الفعلي والتطبيقي يكون عكس ذلك، فهذه الازدواجية خطيرة جداً، لأنها تُحوّل فِكرنا في كثير من الأحيان إلى مجرد مواعظ كلامية تقال فقط على سبيل إرضاء الناس في ظروف معينة؛ في حين أن القائل -وربما المستمع في كثير من الأحيان- لا يأخذ ما يُقال على محمل الجد، يضاف إلى ذلك اعتقادُ كل فريق من الفرق التي تمثل طريقةً فكريةً في عالمنا العربي؛ بأنه يمتلك الحقيقة المطلقة، وبالتالي فإن خصومه على باطل مطلق بصورة تامة وكاملة ولا مجال للتفاهم معه»[(١)].

وليس من شك في أن الثقافة الإسلامية تعيش أزمة حقيقية ومفارقات صارخة لا مجال لإخفائها تحت ذرائعَ أو تبريراتٍ واهية، لكنَّ ذلك لن يَحجُب عنا تصوراتٍ ورؤىً متميزةً فيها من الحكمة والتبصر ما يؤهّلها لتَفتح أبواب الأمل في إمكانية إقامة مشروع عربي إسلامي ثقافي جاد، تُسهم فيه كافة الأقلام الصادقة المؤمنة بقضايا العدل والحرية والنماء، ضمن ثوابت إسلامية واضحة يحاول البعض أن يتجاهلها أو يتنكر لها؛ بدعْوَى أنها أصبحَت من الموروث القديم أو الماضي البعيد.

إن اللافت والمثير هو ذلك الخطاب الشاذ البغيض الذي يَصدر عن بعض

(١) انظر أزمة العقل العربي، مناظرات بين د. فؤاد زكريا ود.محمد عمارة ص، ١٢ دار نهضة مصر ط، ١ -٢٠٠٣.

المثقفين العرب المقيمين في الغرب، والذي لا يكتفي بالتنكر للثقافة الإسلامية وتجاهل قيمها الحضارية الراسخة، بل يُروج لتصورات مغلوطة ينشرها الإعلام الغربي، ويجد من المثقفين العرب المستلَبين؛ مَن يُسوغها ويسوقها بتأويلات غريبة بعيدة عن الحقيقة، وذلك عبر تلك اللقاءات والندوات والدراسات التي ينشرونها أو يقدمونها في الإعلام بلغة الآخر، وهي هنا اللغة الفرنسية تحديداً، فهذا المفكر الجزائري الأصل (مالك شبل) لا يتورع عن الادعاء بعدم وجود تحريم للخمر في القرآن، ويدعو إلى ما يسمّيه قراءة القرآن قراءة جديدة نِسوية في مقابل القراءة الرجولية السائدة حسب زعمه، بما يقطع أي صلة بالتفاسير القديمة بل وللتراث العربي الإسلامي قاطبة، ويدعو إلى استبدال اللغة العربية باللهجات المحلية، وينتهي إلى اقتراح غريب لما سماه أوراش «إعلام الإسلام»؛ حددها في عناصر كلها تؤدي إلى هدم ثوابت الإسلام، بما لا يدع مجالاً للشك في عدائه الواضح لكل ما يمُت للإسلام بِصلة؛ سواء أكان لغةً أو ديناً أو هوية أو ثقافة [١].

أما التونسي «محمد طالبي» فيعتبر القرآن الكريم مجرد «نص تاريخي» فقط، ولا يجد أدنى حرج في الدعوة إلى التخلي التام عن الشريعة. ولا يرى في صوم رمضان إلا إكراها للصائم [٢].

---

(١) انظر: كتابه،

- Les 5 chantiers de l'Islam، Malek Chebel، paris، 2006
- Manifeste pour un Islam des Lumières، 27 propositions pour reformer l'Islam/ Editions Hachette – paris، 2004

(٢) انظر:

- Jeune Afrique – L'intelligent – N°، 2346- 2347. p، 48-51-46ème Année – Du 25/12/205 au 07/01/2٠06.

أما الكاتب الصحفي المغربي الأصل «عَلال المالح»؛ فيرى أن صوم رمضان نفاق ثقافي، ويدعو إلى ما يسميه إحلال العمل محل الدين[١] في تحدٍّ صارخ لأحد أهم أركان ديننا الحنيف.

وغير خافٍ مدى التحامل الشديد على كل ما يجسد ثقافة الإسلام والعقيدة والدين واللغة في تصورات من تنكَّروا لقيم الإسلام وحضارته ولغته، واستبدلوها بثقافة ومرجعية غربية، قد نتفهم خصوصيات الفرنسيين وثقافتهم، لكننا لا نَقبل أن تَصدر من مثقفين من ذوي أصول عربية، كان من المفترض فيهم أن يعبروا عن حقيقة الإسلام، وأن ينشروا تعاليمه السمحة، وخصاله الحميدة وثقافته السامية، غير أنهم اختاروا أن يلعبوا دور الوسيط غير النزيه لاعتبارات عدة، أبرزها: الإصرار على الكتابة باللغة الفرنسية، لتحقيق مجموعة من الأهداف، منها:

- الإيحاء بأن الكتابة باللغة الفرنسية يرتبط بقضايا فيها كثير من الجرأة.
- إعطاء انطباع بأن اللغة العربية لا تُسعف في الخوض في قضايا من هذا القبيل، وكأنها لغة دينية مقدسة فقط.
- ضمان انتشارٍ واسع لتلك الآراء الجريئة من خلال الصدى الإعلامي الذي تتركه في وسائل الإعلام في فرنسا خصوصاً.
- التعبير عن انتماء لهوية ثقافية قديمة جديدة، تسمى: الفرانكفونية.
- السعي إلى الشهرة والمجد والجري وراء كاميرا الإعلام الغربي.

---

(1) Le surcoût de Ramadan. Allal El Maleh. P 3 – perspectives du Maghreb – N° 7 – Novembre 2005 – Casablanca.

- ضمان مكان في المنابر الإعلامية الغربية[١].

ويبدو أن هؤلاء قد وُظفوا أساسًا لخدمة مخططات مدروسة، واستُعملوا مَطِيةً لتشويه ثقافتنا الإسلامية، متوهمين أنهم أدرى بهذه الثقافة وأقرب الناس لمعرفة خباياها وأسرارها من المثقفين الغرب الذين يشاطرونهم التصور نفسه.

ومن الغريب أن تصبح هذه الأقوال رائجةً بين بعض مثقفينا دون تمحيص وتدقيق، مثل الادعاء بتعارض الإسلام مع العقل والتنوير والتحديث، وغيرها من أوهام صنعوها بأنفسهم وأطلقوا عليها مسميات شتى؛ وسعوا إلى نشرها بين الناس وكأنها حقائق مطلقة، فتحدثوا عن الحرية ولم يقيدوها بضوابط تحفظ الكرامة، وتحدثوا عن الديمقراطية فأحجموا عن الاجتهاد فيها، في الوقت الذي يعيبون على المفكرين المسلمين عدم الاجتهاد في ثوابت الدين، ورددوا مصطلح العقلانية، وأنكروا على المسلمين عدم إعمالهم العقل، والحال أنه «ليس هناك دين على ظهر الكواكب يجعل معرفة الله طريقها العقل سوى الإسلام»[٢]، ثم تحدثوا عن التنوير[٣]، ونزعوا هذه الصفة عن الإسلام والمسلمين، متجاهلين أن الإسلام هو التنوير بعينه، والله هو النور: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨]، ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ

(١) من قضايا الإسلام والإعلام الغربي، د. عبد الكريم بوفرة – ص ١٢١ -سلسلة روافد - دولة الكويت- ٢٠٠٨.

(٢) ومن الأخطاء الفادحة التي سقط فيها د. محمد أركون، عدم إدراكه للبعد الفكري والثقافي الذي تحمله اللغة العربية، إذ أنها في اعتقاده «ليست إلا أداة للتعبير». أي مجرد واسطة فقط، متجاهلاً أن اللغة هي الفكر والهوية والانتماء.

(٣) انظر: رد د. محمد عمارة على د. فؤاد زكريا، ضمن كتاب أزمة العقل العربي، ص، ٣٠-٣٢، دار نهضة مصر، ط، ١ -٢٠٠٣.

﴿ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [النور: ٣٥].

لقد نسي هؤلاء أو تناسوا أن الثقافة الإسلامية تقوم على أصول ضاربة في التسامح والحوار: ولنا في تعامل الرسول الكريم ﷺ مع غير المسلمين خير شاهد على تسامحه وتقديره وحواره الراقي الداعي إلى الكلمة السواء والحق؛ التي أكدها الباري تعالى في القرآن الكريم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وهي دعوة تلقاها الحبيب المصطفى ﷺ من ربه عز وجل، وحث المسلمين على التشبث بها واعتمادها في دعوة الناس إلى الدين الحق، بلا إكراه أو عنف أو قوة مادية أو معنوية، وإنما بالصبر والتزام قواعد الحوار والجدل بالتي هي أحسن، وهي الطريقة التي دأَب عليها ﷺ وأصحابه الكرام وهم ينشرون الإسلام ويدْعون إلى ثقافة السلم والوئام، بدليل تلك اللقاءات المتكررة الطويلة التي أجراها ﷺ مع نصارى نجران يحاورهم ويستمع إليهم، ويناقشهم في كثير من القضايا التي تهُمّ الدعوةَ والأوضاعَ الجديدة في المدينة.

هذه إذن إحدى مقومات الثقافة الإسلامية المتأصلة، الضاربة جذورَها في التسامح والحوار الهادئ النابع من القرآن الكريم ومن سيرة الرسول ﷺ؛ الذي عكس روح القرآن وتعاليمه السمحة قولاً وعملاً؛ حتى مع المخالفين الذين كانوا يتشبثون بما يعتقدون أنه حق مطلق أو صواب تام، والواجب يقتضي اليوم والأمة الإسلامية تواجه صعاباً وتحديات جساماً؛ أن تسلك المنهج النبوي، وتطبق سنة الرسول الكريم الذي لم يتوانَ قَطُّ في تنويع أسلوب الحوار والتعامل مع المخالفين في الدين، مرة باعتماد البيِّنة التي تقود المخالفين إلى الاهتداء للحق والاقتناع به دون ضغط أو إجبار؛ تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم

﴿ مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [سبأ: ٢٤]، وقوله: ﴿ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦]، وقوله: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ [فصلت: ٣٤].

والثقافة الإسلامية وهي ترتكز على هذه المقومات الأصيلة النابعة من القرآن وهَدي الرسول الكريم ﷺ، ستواصل تأكيد هويتها الإسلامية من غير تعصب؛ فتحقق أصالتها، وتُسهم في بناء الحضارة الإنسانية من خلال أصول إسلامية حية ليست مستعارة بدعوى المعاصرة.

ومن مقومات الثقافة الإسلامية أيضاً: كونها قائمة على الوسطية والاعتدال والعدل والحق، بعيداً عن أي جنوح نحو الإفراط أو التفريط، وهذا استناداً إلى أن الأمة الإسلامية بنص القرآن الكريم أمة «شاهدة» عليها أمانة ربانية وواجب الشهود الحضاري؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وعليه فالأمة الإسلامية عليها تحديات جسيمة، تنبع من ضرورة تنزيل هذه الأمانة لتكون سارية في المجتمع المحلي أو الوطني، وفي العالم كله، بما يجعلها شاهدة تضيء للناس طريق الهُدى ودين الحق، من خلال الأقوال والأعمال النابعة من قناعة المسلم ذاته، وبالتالي إقناع الغير من خلال الحوار الثقافي المبني على الفهم والتفهم والإفهام، وبالقدوة الحسنة التي يعكسها الفعل الخلاق والفكر النير والثقافة السمحة التي تجمع ولا تفرّق، وتبني ولا تهدم، ثقافة منفتحة على مستجدات العصر التي لا تتعارض مع هويتنا وثقافتنا ولغتنا وقيمنا الحضارية.

٤- الأيديولوجيا وصراع المواقع يهدمان الثقافة ولا يبنيانها:

مما يميز سيرة النُّخَب العربية والإسلامية المثقفة؛ هذا الاستعلاء والاحتكار والتوظيف المسرف للأيديولوجيا في تنزيل ما تراه حقاً مطلقاً على الواقع العربي الإسلامي، وإخضاع شعوبه لتكون مُسيَّرة تابعةً لسلطة النخبة التي تملك الحق في الزعامة والقيادة والتوجيه، نافية بذلك خاصية إشراك الآراء الأخرى في بناء مسيرة المجتمع نحو التغيير والنماء المنشود، وهكذا تبخرت تلك الشعارات البراقة التي كانت تنادي بها هذه التيارات التي تدعي الديمقراطية والحرية والعدالة، لأنها لم تمارسها حتى في تنظيماتها الحزبية الداخلية أو في برامجها، مما تولَّد عنه انفصام واضح بين أقوالها وأفعالها، ففقدت فكرة النهضة روحها، وهي التي كانت الكلمة الأكثر تداولاً في أدبياتها، بل انقلبت إلى نداءات جوفاء بعيدة كلياً عن وقائع مثقلة بالتفرق والتبعية والتطاحن الداخلي والاتهامات المتبادلة، وعكست المستوى المتدني الذي آلت إليه هذه القوى التي كان من المفروض أن تُسهم في إنجاز تحولات إيجابية، غير أن شيئاً من هذا لم يقع، حيث غرق الجميع في أيديولوجيات بائدة لازال البعض يراهن عليها حتى الآن، «فالمثقف الليبرالي لم يتمكن من الاندماج في مجتمعه، مما منعه من إنتاج وعيٍ مجتمعي قادرٍ على التغيير، ومع أن الفكر القومي رفع في أغلب الأحيان شعارَ العلمانية، إلا أنه وظف الدين الإسلامي من أجل كسب مشروعية ما ينادي به، وبذلك سقطت العلمانية في التسويغ الديني عبر محاولتها عَلمنة الدين الإسلامي الذي هو في حد ذاته نفْيٌ للعلمانية، لذا تحولت فكرة النهضة إلى فكرة تنموية تغاضت فيه عن مسائل التخلف والاستبداد والوعي، فالاشتراكية مثلاً، عملت في العالم العربي على تبرير الاستبداد وقمع الوعي باسم العدالة الاجتماعية، متجاهلة البعد الإنساني

والاجتماعي والديني للمجتمعات العربية، فكانت التنمية عمليةً مشوهة لم تتمكن من تحديث أسس المعاش الاجتماعي والسياسي، لأنها لم تُبْنَ على أساس معرفي حقيقي، بل على تهميش الوعي وتقليد الغرب» [١].

ولا يشذُّ عن ذلك خطاب كثير من الجماعات الإسلامية التي تشترك في خاصية إقصاء الغير، والتسلط الفكري، والاستبداد بالرأي إلى حد التناحر، لأن «الحالة التناحرية السائدة بين كثير من الجماعات؛ تعكس مظاهر التأزم في بِنية الفكر الدعَوِي وبِنية التنظيمات؛ على مستوى الأفكار وقيم العلاقة مع كل مسلم القائمة على قاعدة «الأُخوة الإيمانية»، وعلى المستوى الإجرائي؛ تعكس عزلة الخطاب الدعوي عن المؤثرات الفكرية والثقافية، وإغراقه في شؤونه الفردية وتصوراته الضيقة، ومن المفارقة أن يتم هذا في الوقت الذي يتم فيه الحديث عن «العولمة» و«الحوار» بين الحضارات والأديان وغير ذلك، لكن السبب الأبرز في حالة التأزم هذه؛ يرجع إلى شخصنة الدعوة وأَسْرها في حدود تصورات وفَلك الأشخاص، وهذه الشخصنة تبدأ من الفرد رئيس الجماعة في حدود تابعيه، لتتحول «الجماعة» كلها إلى تجسيد حالة «الفرد» في جدول العلاقة مع الجماعات الأخرى نحن وهُم»[٢]، وهنا تتحول الثقافة والفكر إلى أحجار صماء لا تسمع ولا تجيب،بل إنها تضر ولا تنفع، تُشتت ولا تَجمع، يتم التراشق بها بعد أن تغلَّف بأقوال وخطابات منمطة مسكوكة.

ورغم الانتقادات التي كان يوجهها اليسار إلى باقي التيارات الأخرى لاسيما

(١) تجارب التنوير وإخفاقاتها في العالم العربي، د. أحمد الموصلي – عالم الفكر، العدد – ٣، المجلد ٢٩، يناير – مارس ٢٠٠١، ص، ١٣١.

(٢) انظر: العمل الدعوي بين وصاية الشيخ ونصرة الدين، د. معتز الخطيب، المنار الجديد، عدد خريف، ٢٠٠٣.

التيار الإسلامي، فإنه كان أسير هيمنة الأيديولوجيا، بحيث نلمس لديه نزوعاً واضحاً نحو الإقصاء والتسلط وتغييب الحوار؛ سواء الداخلي أو مع مخالفيه في الرأي والتوجه،إلى جانب جنوحه إلى التضخيم والتهويل وتقديم نفسه باستمرار في موقع الضحية، وليس معنى ذلك أن هذه حالة طارئة أو ظاهرة عابرة، بل إن اليسار كان في ممارساته- وهذا هو الخطير- امتداداً لِبنية ذهنية وثقافية موروثة من حيث النظرة التجزيئية والأيديولوجية القائمة على ثنائيات نقيضة: إما خضوع أو تسلط، أنا أو آخر، ولا تعتمد الحوار القائم على حركة جدلية منهجاً وحافزاً للتغيير المطرد... ورغم أن المنهج اليساري يرى الحركة الجدلية بين الفكر والواقع، والجدل بين الأفكار بشهادة الواقع؛ أساساً معتمداً، إلا أن نهج التناول اليساري جاء متَّسقاً مع البِنية الذهنية الثقافية الموروثة.. على نقيض ما بشَّر به المنهج الجدلي، ومن هنا جاء الخطاب اليساري خطاباً أيديولوجياً لا فكراً علمياً يتَّصف بالشمول ومنهجية البحث والنظر،والصفة الأساس للأيديولوجيا: أنها تعتمد الإيمان والاكتفاء الذاتي واللاتاريخية مع تجاوز خصوصيات الزمان والمكان، ومن ثَم ترى في نفسها حقيقة منغلقة على نفسها ونهائية[1].

وهكذا يتبين أن كثيراً مما كان مَحَطَّ نقْدٍ واتهامٍ للآخرين، كان بارزاً بل مهيمنا في فكر وعمل هذا التيار، لكنَّ غلبة الأيديولوجيات في الفكر؛ أسهم في تعطيل مشاريع التنمية في البلاد العربية، لأن «كل اتجاه أيديولوجي فسَّر الأحداث التاريخية والوقائع المحيطة حسب منظوره وتأويله الخاص، في استبعادٍ كليٍّ للمستويات الأخرى التي تبدو حسب زعمه غير ذات جدوى، دون الوعي بخطورة النتائج المترتبة عن هذا المنحى الإقصائي، غير الحِواري وغير المؤَمَّن بالاختلاف

(١) اليسار العربي وسوسيولوجيا الفشل، د. شوقي جلال، عالم الفكر، العدد، ٣-٤، يونيو ١٩٩٨ص، ١٩٣ الكويت.

المُفضي إلى تخصيب التنوع الفكري المنتج لثقافة التكامل التي لا تتحقق في ظل هيمنة الفكر النمطي، أو تتطور في ظل أحادية الرؤية ومنطق المنع[١]، ومن الغريب أن تكون هذه المفاهيم هي نفسها التي ناضلت هذه التيارات لتحقيقها، تحت مسميات العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص وحرية الرأي.

ومن مساوئ هيمنة الأيديولوجيا على مشاريع الثقافة والتنمية في العالم العربي والإسلامي؛ كونها خَلقت لديهم خطاباً مهزوزاً منكسراً يتوسل لحلولٍ في الماضي أو الحاضر، وهذا ما يعكس خللاً بِنيوِيًّا في هذا الفكر بكل اتجاهاته، حتى لدى المثقفين الذين راهنوا على المَنحى العقلي ورفعوه إلى مستوى التقديس، حيث أصبح لكل فريقٍ نموذجه، ولكل حزبٍ مصداقيتُه، ولكل مجموعةٍ: أيديولوجيةٌ لا تُقهر ولا ينبغي الخروجُ عنها أو نقدُها أو محاورتُها، مما تولَّد عنه صراع دائم محتدم بين مختلف هذه الأيديولوجيات، نتجت عنه أزمة خانقة ألقت بسلبياتها على كل المجالات، ووسَمت الحياةَ الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بسمات الضعف والتخلف حتى وإن بدت في الظاهر حديثة في بعض وجوهها أو خطاباتها، هذا ما نلمسه فيما يُعرف بمطلع عصر النهضة، باعتباره الملجأ الآمن والحاضن الوفي، والمُخلِّص الحقيقي من التخلف العربي، فلا غرابة إذن أن يهيمن هذا المصطلح في أبرز الكتابات التي تناولت موضوع الثقافة والتنمية.

---

(١) هناك تنازع صريح بين أيديولوجيات، وتيارات عديدة، من أبرزها، التيار القومي والتيار اليساري والتيار الاشتراكي والتيار الإسلامي والتيار الليبرالي، إلا أن أهم قاسم مشترك بين هؤلاء؛ هو تخطيئ الآخر، والجري وراء سوءاته، وإحصاء عثراته، وعدم إقامة حوار جاد ينطلق أولا من حسن الاستماع والإصغاء والإقرار بنسبية التصور والرأي.

٥- الاجتهاد الثقافي مطلب إسلامي حيوي:

إنها دعوة قديمة متجددة تتطلب إنجازاً على أرض الواقع كي لا تبقى مجرد شعارات جوفاء»[(١)]، وهي دعوة لم تُثمر نتائجَ مهمة تنعكس على المجتمع وتثمر فكراً يؤمن بالتعدد والاختلاف في إطار الثوابت الإسلامية، وهذا يفرض ضرورة تدبير هذا الاختلاف وترشيده ليغدو اختلافَ رحمةٍ ونماءٍ لا تشتت وتخلف وهدم وإقصاء كما هو قائم اليوم، وهذا التدبير للاختلاف لابد أن يستند إلى مقومات وشروط أساس لا غِنى عنها، منها: اعتماد مقاصد الشريعة،نبذ التعصب والإيمان بالحوار الخلاق، احترام الرأي المختلف، والإقناع بالحجج في حدود الجدال بالتي هي أحسن. والغريب أن يتغاضى هؤلاء المفكرون والمثقفون والفقهاء؛ عن الأساس في الإسلام الذي هو السِّلم والسلام والأُخوة والوئام بدلاً عن العنف والخصام والقهر والإجبار، فكيف يُعرضون عن قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤]، وهي آياتٌ أساس في الحوار وبناء الأفكار من غير تعسف ولا إجبار.

ولعل تفاقم هذه المفارقة في جسم العالم العربي والإسلامي، وتغلغلها في فكر العديد من المثقفين والمفكرين؛ يستدعي دعوة صريحة وجريئة لتدارك خطر تفشي هذه الظاهرة التي لم تقتصر على عنف الخطاب فحسب؛ بل تجاوزَته إلى عنف الأفعال، نلمس آثار ذلك واضحة في العديد من التصرفات

---

(١) انظر: (لماذا لا نربط بين التنظير والممارسة؟)، د. أحمد الخمليشي، ص ١٤-١٥، منشورات الزمن، ص- ١ -٢٠٠٤، المغرب.

الهدامة البعيدة عن روح الإسلام ومقاصده، ولن يكون ذلك إلا بفتح حوار داخلي بين المسلمين أنفسهم قبل الحوار مع الغير، إذ لا يكفي أن يردد المسلمون أنهم أصحاب رسالة عالمية، ولا يكفي أن يفخروا بهذا التكريم الرباني، بل عليهم أن يجسدوه فعلاً لا قولاً، إنجازاً لا شعاراً، وهذا لن يَحدث إلا بتحقيق التواصل والحوار الذاتي الذي يؤهل ويُفضي إلى حوار خارجي، من موقع التساوي لا الضعف؛ لأن «المسلم الذي يجد نفسه عاجزاً عن التواصل مع المسلم، والذي يواجه أخاه بالعنف ويدعي أنه في مكان يؤهله للتخطيء والتصويب؛ يحجب حقيقة أخرى هي أنه يعيش حربًا داخلية مع قناعاته، وكلما ازدادت قسوة المحاورين لفكره؛ فإنه يختزن ذلك إلى حين تفجيره في الآخر الذي يتقاسم معه الحقيقة»[(١)].

وأمام هذه المفارقات التي ذكرنا بعضًا منها، هل يتعلق الأمر بأزمة في العقل العربي والإسلامي كما قال بذلك أغلب المفكرين؟ أم أن القضية مرتبطة بإشكالات أخرى يجب الكشف عنها وتحليلها وتقديم مداخل لتجاوزها؟ وهل تكمُن هذه المداخل في تقديس العقل على غرار التجربة الغربية؟

الغرب أعلى من سلطان العقل فجنى ثماره وجعل ثقافته كلها رهينته بحيث غدا الإلهَ والمبتغَى والمنتهَى، وثقافتُه لم تعترف بالآثار المدمرة لهذا الغلو في تقديس العقل؛ لكن الثقافة الإسلامية لا ينبغي أن تَركَن لثقافة الغرب، ولا أن تستسلم لكسلها وتخلّفها الذي طال أمدُه لتكتفي فقط بترديد خطورة التمادي في إعمال العقل، بل هي الآن مدعوة أكثر إلى الأخذ بالعقل والسير في طريق العلم والمعرفة والاجتهاد، لأن العلم هو السبيل إلى تحقيق نهضة شاملة، ولأن طلب

(١) انظر د. إدريس هاني، الحوار الإسلامي – الإسلامي، محاولة لاستجلاء الحوار الإسلامي – الإسلامي، سلسلة الكلمة، ع، ط، ١، ٢٠٠٤ – بيروت، ص، ٣٠.

العلم في الإسلام فريضة من أوجب الواجبات على كل مسلم، ثم إن هذه الثقافة الإسلامية التي هي منبعٌ فكري ديني عقلي روحي- أساسها الوحي والعقل - مدعوة لأن تثْبت وجودها في وجه هذا التيار المادي الذي اكتسح كثيراً من المجتمعات الإسلامية، والثقافةُ المستقبَلة إذا لم تواجِه هذا التيار بنفس منطقها العقلاني؛ ستنهزم أمامه وتنعزل عن مسيرة العصر العلمية، وهي مدعوة إلى إعداد المثقفين الإسلاميين، ليس في علوم القرآن والحديث فحسب؛ ولكن في كل مناحي المعرفة الإنسانية والعلمية والتقنية[1].

ولا بد من التأكيد على ضرورة إشراك جميع الفئات في هذا التحدي، بحيث لا يقتصر الأمر على العلماء والمفكرين والنُّخَب، بل إن كل عربي مسلم ملزَم بالانخراط في عمليتي البناء والنماء، انطلاقًا من الوعي السليم لواجباته وللأمانة التي على عاتقه بوصفه من الأمة التي اختارها الله تعالى لحمل الرسالة للعالمين كافة، من خلال فهم تعاليمها ومقاصدها وروحها الحضارية التي تتطلب جهداً ووعيًا واجتهاداً يضمن استمرارها وسريانها حية مؤثّرة نافعة، كيف لا؟ والله يؤكد على التكليف الفردي لكل مسلم مادام سيُسأل عن ذلك؛ كما في قوله عز وجل: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٣-١٥]، فلماذا إذن يتم تعطيل هذه الآيات الربانية النيرة؟ ولماذا لا يتم الاقتداء بها في إنتاج خطاب إسلامي فكري ثقافي تنموي شامل يمحو هذه الصورة السلبية التي تهيمن على واقع الفكر الإسلامي المعاصر، رغم الإقرار

(١) انظر: في الثقافة الإسلامية والآداب القرآنية، د. عبد الكريم غلاب، ص، ١٤٠، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط، ١٩٩٢ – ١.

بوجود استثناءات لم تستطع التأثير في كثير من الآراء والأفكار والتصورات الشاذة على الرؤية الإسلامية السليمة؟.

ولعل العصر الحالي وما تنتابه من تناقضات ومفارقات وصراعات دامية؛ خير شاهد على توحش العقل الحديث، وطغيان الفكر المادي البعيد كل البعد عن القيم والأخلاق وروح الإنسانية التي انهارت بشكل مخيف، فحلَّت محلها الفردية والتسلط والعنف بكل أشكاله، حتى بين المفكرين والمثقفين والعلماء أنفسهم، فتحوَّل الجميع إلى مشارك في تدمير ذاته والآخرين بِاسم الحضارة والعلم وسلطة العقل، مما ينبئ بانهيارٍ وشيكٍ للحضارة، هذه التي تنكرت للقيم والأخلاق وآمنت إلى حد التقديس بالمادة والتجريب والصورة؛ إلى حدٍّ أصبح فيه هؤلاء «يعبدون ذواتهم لا الذات الإلهية، وأوقعَتهم الذاتية والأنانية في الفتنة بما حلت منهم محل الإله، وعبادتهم لهذا الإله الكاذب- الذاتية- ستوقِعهم في كل ميادين الفكر والعمل على طرق لا شك أن منازلها الوسيطة زائفة تَسُرُّ النظر، ولكنَّ منزلها النهائي ليس إلا التردي والهلاك.

فهذه العبادة للذاتية هي التي اتخذت العلوم التجريبية آلة لتدمير الإنسان، وصبَّت الأخلاق في قوالب الأَثَرة والرياء والخلاعة والمجون، وسلَّطت على الاقتصاد شياطين الاستبداد والظلم والحرمان، ونفشت في النواحي الاجتماعية كلها سموم الأَثَرة وحب الترف، وأفسدت السياسة بمفاسد ضيقة مثل مفارقة اللون والجنس وعبادة آلهة القوة والسلطة، فجعلَتها آفة شقاء للإنسان.

والخلاصة أن هذه البذرة الخبيثة التي بُذرت إبَّان النهضة الجديدة في الغرب؛ وقد انشقت عن شجرة باسقة خبيثة للحضارة والتمدن، أكْلُها لذيذ ولكنه مسموم، وزهرها جميل ولكنه شائك، وأغصانها بهيجة ولكنها تنفُث سُمّاً غير مرئي لا يزال يسمم دمَ النوع البشري في الداخل، وهذه الشجرة بدأ يتأفف منها الغرب الذي غرسها بيديه؛ لأنها خَلقت في كل شعبة من شعب الحياة

مشاكل وعُقداً»[١]، غير أن المثير واللافت؛ أنه في المقابل كثير من العرب من يُنكر هذه الحقيقة، ويتمادى في تقديس الحضارة المادية وتأليه عَقلها الجامح، بل ونعْت التراث العربي والإسلامي بأحطِّ النُّعوت، بما لا يخلو من قول عنيف وارتماء سافر في أحضان «الحداثة» الفاحشة على نحو ما نجده في قول العفيف الأخضر: «الحداثة هي انتصار العقل على النقل، أي انتصار الاستدلال على إيمان العجائز، والمعقول على المنقول عن الأسلاف من عادات ومعتقدات عاجزة عن إثبات شرعيتها العقلانية أمام محكمة العقل»[٢]، بهذه المقارنة المتعسفة التي لا تخلو من تحامل وعنف على مكونات الثقافة الإسلامية ومصادرها الأساس؛ يتابع هذا الأخضر سلسلة اتهاماته، بل ويتمادى في رمْي المفكرين والباحثين العرب والمسلمين بأحط النعوت، بل ويقول: «هكذا يبدو مصطلح العقل العربي الذي طرحه الجابري؛ في سوق التداول الفكري تناقضاً في الحدود، كقولنا: «نهار مظلم» فالعقل ليس له انتماء إثني أو جغرافي؛ وإلا كُفّ عندئذ عن أن يكون عقلاً، انتشرت عبارة «العقل العربي» رغم جرعة الخطأ القاتلة التي تنطوي عليه لأنها داعية النرجسية الجمعية الجريحة.. لو سمى الجابري عقلَه العربي «العقل المغربي» أو الموريتاني أو الصحراوي؛ لاستفز عندئذ الحس النقدي فضلاً عن الحس النقدي لدى قرائه واكتشفوا المفارقة العبثية، من أين جاء الجابري بهذه الحماقة الفلسفية وهو الذي حاول بنقد العقل العربي؛ محاكاةً «كانت» في «نقد العقل» المحصن والعملي»[٣].

---

(١) نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي ص، ٣٨ – ٤١ مؤسسة الرسالة – بيروت.

(٢) انظر الحداثة وانتقاداتها، إعداد وترجمة د. محمد سبيلا ود. عبد السلام بنعبد العالي ص، ٨٠-٧٨ دار توبقال – المغرب ٢٠٠٦.

(٣) المرجع نفسه.

ورغم محاولات كثير من المثقفين في المغرب والمشرق؛ الإجابة عن أسباب تَخلُّف الأمة وتَقدُّم غيرها، فإنها لم تستطع تقديم مشاريع متميزة يمكنها أن تقدم رؤية موضوعية متكاملة لهذا الواقع العربي الإسلامي المثقَل بالمشاكل، ويبدو أن لذلك أسباباً تعود إلى موقفهم من مفاهيم الحداثة والتراث والماضي والحاضر والتنمية والتخلف وغيرها.

ولقد استطاع د. طه عبد الرحمن أن يكشف بعض سلبيات هذه المشاريع المتنوعة ظاهراً، المتماثلة أو المتشابهة عُمقاً، يستوي في ذلك من يسمّون «بالحداثيين والتقليديين» فكلاهما مقيد حسب د. طه عبد الرحمن، والجميع مشترك في استمرار هذا التيه الفكري الذي تحياه الثقافة العربية والإسلامية اليوم؛ إلى الحد الذي تَحوَّل إلى «فتنة مفهومية كبرى» لا يَعرف كيف يخرج منها، إذ لا تفتأ تتوارد عليه كثرةٌ متكاثرة من المفاهيم التي تضعها المجتمعات الأخرى، فيأخذ في التخبط في معاقدها ومغالقها، بل في متاهاتها وأحابيلها، لا قدرة له على استيعابها، ولا طاقة له على إيداع مفاهيم غيره، حتى كأنها من إبداعه ابتداءً، فلا مطمع في أن يَخرج من هذا التيه الفكري الذي أصاب العقول فيه، ومع هذا نجد زُمرةً من أهله تدَّعي أنها استطاعت أن تهتدي في هذا التيه المهلك، وما هم إلا فئة لمقلدين من أبنائه، وهؤلاء ليسوا نوعاً واحداً، وإنما نوعان، أحدهما: «مقلدة المتقدمين»،أي الذين يقلدون المتقدمين من المسلمين، والآخر«مقلدة المتأخرين»،أي الذين يقلدون المتأخرين من غير المسلمين[١].

(١) انظر: روح الحداثة، د. طه عبد الرحمن، ص، ١١-١٢، المركز الثقافي العربي، ١٤-٢٠٠٦، المغرب.
وانظر أيضا: سؤال الأخلاق، المركز الثقافي العربي، ط، ١ بيروت ٢٠٠٠.
=

مثقفونا وجهان لعملة واحدة، طابعها غياب الإنجاز الخلاق الذي نحتاجه بشرط أن نعي مقوماته ونستوعب خصائصه، ونهيئ أسباب نجاحه حتى نَنعم بنتائجه التي تعكس ذواتنا ووجودنا وعقيدتنا وهويتنا ولغتنا، وإذا كانت طموحات المثقفين العرب والمسلمين شديدة وأكيدة، وحماستهم ظاهرة ورغباتهم في التغيير معلَنة ومنصوص عليها في الكثير من أدبياتهم؛ فإن ذلك يظل من الأماني التي تصف الأزمة ولا تحلها، تُعلن المبادرة ولا تُنجزها، تُكرس الواقع المتخلف ولا تعمل على تجاوزه، إذ التجاوز أو التغيير يتطلب شروطاً وإمكانات ومواقف واضحة حاسمة، يسهم فيها الجميع، وفي مقدمتهم المفكرون والمثقفون المؤمِنون بالتغيير والاجتهاد القائم على فقه الواقع والإجابة عن أسئلته الراهنة الشائكة، في ظل تحولات متسارعة جارفة لا تتحمل مزيداً من الانتظار، وهذا يتوقف على التخلص من تلك التصورات المتحجرة التي لازالت بعض القُوى تراهن عليها وتنشرها في الناس، وتُعادي كلَّ مَن خالفها حتى ولو أقام الحجة على عدم صدقها وواقعيتها، ولعل ذلك يعود في بعض وجوهه إلى ما يُسمى: ظاهرة الكسل الثقافي الذي يبدو أن فئات عديدة من المثقفين المسلمين قد اطمئنوا له وأَلِفوه واستحسنوه وارتضوه، فجعلوه ثقافة مستحدَثة تنافس ثقافة العمل والاجتهاد والخير والقيم والنماء التي يدعو

=

تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي – بيروت ١٩٩٤.

العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٧.

اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٨.

الحق العربي في الاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٢.

حوارات من أجل المستقبل، دار الهدى، بيروت ٢٠٠٣.

إليها الإسلام [١]، فكانت النتيجة ما نراه في واقعنا العربي والإسلامي من تفريطٍ لما يأمرنا به ديننا الحنيف من علم وعمل يمكث في الأرض وينفع الناس ويبني الحضارة ولا يهدمها، ولقد تمسَّك كل حزب وفريق وجماعة بفكره وتصوره، تحصَّن خلفه، وزيَّنه بفسيفساء لفظية وخطابات رنانة، طمست الكثير من مكامن الإشراق والسمو والعطاء التي ميزت ثقافتنا الإسلامية.

لقد آن الآن الأوان كي نؤسس ثقافة إسلامية تؤكد سموَّ ديننا ولغتنا وهويتنا وحضارتنا، وتُثبت أن هذه الثقافة قادرة على مواصلة التألق والتحدي رغم الصعوبات القائمة والمشاكل الموجودة، لكن علينا أن نصارح أنفسنا وأن نعترف بتقصير النُّخَب المثقفة بكافة أطيافها في حمل هذه الأمانة، وعلى هذه النخب أن تُقرّ بضرورة إعادة النظر في كثير من المفاهيم التي صنعَتها أو استعارَتها واستنسخَتها من ثقافات أخرى ثم بنت عليها أحلامها دون أن يكون لها أي سند واقعي، أو مقومات حقيقة في بناء الإنسان المسلم وتنمية المجتمع، لقد أوهمَتنا هذه النخب حين تخلت عن اللغة والهوية والعقيدة؛ أن الفرج قريب والحل موجود، وأن المسألة لا تعدو أن تكون مجرد كبوة أو عثرة سرعان ما نستفيق منها، لكن الأزمة عمّرت فينا زمنـًا طويلاً، فألِفناها وأقمنا لها كل مقومات التعمير والبقاء؛ بفُرقتنا وتشتتنا وصراعاتنا، فتحولت الأزمة إلى تخلف نغذيه بأفكارنا البعيدة عن روح الإسلام وقيمه السامية، ونقويه بأخطاءٍ قاتلة، وفي كل مرة نُمنّي النفسَ بأمانٍ غريبة عجيبة، تُرسّخ فشلنا في تحقيق ثقافة إسلامية جامعة، أصولها ثابتة وفروعها في السماء، لا تستطيع رياح التغريب أو الاستلاب أو التبعية أن تنال منها شيئـًا.

---

(١) انظر، العمل الإسلامي المعاصر بين جدلية المرجع والواقع، جواد الشقوري، مجلة المنطلق الجديد، العدد ٥، صيف ٢٠٠٣ – ص، ١٩٣، بيروت.

فإذا اعترفنا أولاً بهذا التقصير وحددنا بدقة مكامن الخلل، يمكن أن ننطلق في تفكير جدّي نقدي جريء وصريح وواقعي يَقينا من تلك الأخطاء، سواء في مجال الفكر أو التصور أو الإنجاز، ويجنّبنا تلك الصراعات الطاحنة في التعامل مع قضايا هي صُلب الثقافة؛ كاللغة والهوية والترجمة والتوفيق والتجديد والحداثة، إذ التوفيق والتأصيل والتحديث كما دعت إليه النخب العربية والإسلامية ومارسته؛ قد أساء لثقافتنا الإسلامية أكثر مما أفادها، والحداثة تحولت عند كثير من المثقفين المسلمين إلى فكر يُستهلك أو بضاعة تُجلب، «وغاب عن مثقفينا أن الحداثة أشبه بصيرورة اجتماعية ارتبطت بتحولات عميقة لا دينًا جديداً يبشَّر به وتترجَم تعاليمه»[١].

إن الأجدى والأنفع أن يجتهد المثقَّف المسلم بكافة الطاقات الحية في المجتمع، ليَخرج من حالة الكسل والاتكال والاستهلاك المتواصل؛ إلى استغلال قدراته وكفاءاته التي عُطلت، فألِفت الاعتمادَ على الغير، وطاب لها المقام، وذلك حتى يَبني حاضره ويَستشرف مستقبله ويمحو عنه هذه الصورة السلبية من التخلف والتبعية التي لا تليق بأمة الإسلام حاملةِ لواء الحضارة والنماء، على أن ذلك يجب أن يكون مقرونًا بوعي الذات وإمكاناتها، ووعي العالم وما استجد فيه، ليكون العمل بانيًا خلاقًا ونافعًا، ويكون التجاوب مع الفضاء الكوني طَوعًا لا كَرهًا؛ بإنجاز واعٍ يحفظ قدرة أبنائه على إبداع الأفكار وإنتاج المعارف القائمة على مبادئ النقد والرشد والتخليق[٢].

---

(١) الأيديولوجيا المستعارة، د. رضوان جودت زيادة، عالم الفكر، العدد، ٤ – أبريل – يونيو ٢٠٠٥، الكويت.

(٢) روح الحداثة، د. طه عبدا لرحمن، ص، ٢٦٧. مرجع سابق.

٦- حاجة الأمة لإنجاز مشروع ثقافي تنموي إسلامي:

يصعب الحديث عن مشروع عربي إسلامي في ظل غيابِ تحديدٍ دقيق للأدوار، ومعرفةٍ عميقةٍ بالحاجيات، وفشلٍ واضحٍ في مد جسور التواصل الفعال، فإذا كنا نؤمن بأن الثقافة والتنمية ليستا حِكراً على المثقفين فقط، بل هي مسؤولية كل مكونات المجتمع، بدءاً من كل فردٍ إلى الحكومات والمؤسسات وهيئات المجتمع المدني، فإننا نقر بأن دور المثقفين أكبر وأعظم بحكم ما يتميزون به من تكوينٍ معرفي ورؤية عميقة واستشرافٍ لأحوال المجتمع ومتطلباته، غير أنه لابد من التأكيد أيضاً على ضرورة أن تتحمل الحكومات العربية والإسلامية بمختلف قطاعاتها؛ مسؤولية تهيئة المناخ الملائم الذي يَكفل للمثقفين القيامَ بدورهم كاملاً في إنجاز مشاريع التنمية، في إطارٍ من الحرية والمسؤولية والدعم الكافي، تقديراً لمجهودات هذه النخب، ولابد من الإشادة بالمبادرات المشجعة التي تقوم بها بعض البلدان العربية والإسلامية لدعم الفعل الثقافي ومد جسور التواصل بين جميع الفاعلين في المجتمع، مع إشراك كافة المواطنين في اكتساب المعرفة النافعة بلا حواجز أو قيود، غير أن ذلك وإن كان يمثل إشارات مهمة إلى ضرورة المراهنة على مجتمع المعرفة التي تنمحي فيها الطبقية والتمييز؛ فإنه يظل غير كاف في ظل وجود شريحة كبيرة من المجتمع العربي تعيش أمية تامة تحت ذرائع واهية؛ مثل شح الإمكانيات والميزانيات المرصودة للمجالَين العلمي والثقافي، وضعف التشجيع وغياب الوعي بأهمية الفعل الثقافي.

وذلك ليس مبرراً يعفي مثقفينا من القيام بدورهم الريادي في النهوض بأوضاع الأمة، من خلال التأسيس لمشروع ثقافي تنموي قابل للتنفيذ، غير قائم على شعارات أو أحلام بعيدة عن إمكاناتنا، تسهم فيه كل الفعاليات بصبر

ونكران الذات، اعتباراً للمصلحة العليا للأمة كافة، مع التأكيد على ضرورة المراجعة والتصحيح وأخذ العبرة من أسباب إخفاق التجارب السابقة.

وهكذا تتم مشاركة كل طرف من موقعه وفق المسؤولية الملقاة على عاتقه، والتي يبدو أن للمثقف الدور الأهم في تفعيلها، دون هروب أو ذرائع تعفيه من واجبه وتُحمِّل الآخرين نتائج إخفاقه، ليكتفي بعدها بالظهور بمظهر الضحية، وبهذا يتحول المثقف إلى سُلطوي يرمي بأفكاره النيرة وراءه ويتخلى عن مبادئه التي نظر لها طويلاً، ليكشف القناع عن مفارقات صارخة كانت متوارية خلف عبارات براقة غدت طي النسيان، بعد تنكره لمبادئه وتخليه عن رسالته في النصح والتوجيه والنقد واقتراح البدائل الممكنة.

إن المثقف العربي الإسلامي واقع تحت وضع إشكالي: بين مطرقة مجتمع مليء بمظاهر التخلف التي تتطلب منه المساهمة في تجاوزها، وسِندان العيش الكريم الذي عليه أن يكفله له ولأسرته، بعيداً عن الإغراءات الزائدة، الشيء الذي يجعله الحلقة الأساس في مسيرة النماء، أو العامل الحاسم في تكريس وضعية التخلف، حين تحضر المصلحة الفردية الضيقة التي تكتسي صبغة مقنعة يتم تداولُها على نطاق عام، فتتلاشى بذلك قوتها المعرفية وتفقد بُعدها التثقيفي والحضاري، لتستقر أخيراً في ثوبها المنفعي الذاتي، وهذه حلقة أخرى من حلقات أزمتنا الثقافية، ذلك أن كثيراً من هؤلاء المثقفين لا يقيمون فواصل بين المنفعة الآنية المرتبطة بالحزب أو الجماعة، وبين ما تتميز به الثقافة من أبعادٍ تنموية شاملة لطموح أمة بكاملها، ثم إن دور المثقف لا ينحصر في تثبيت ما هو قائم في المجتمع، بل في توجيهه وإرشاده ونقده إذا لزم الأمر، بحيث تكون للمثقف جرأة وشجاعة لممارسة عملية النقد البَنَّاء لذاته أو لغيره، لكن بما لا يسبب الاعتراض المقيت أو التشهير البشع، بل بتقديم النصح والرأي

والبدائل الممكنة لحل المشاكل وتطوير المجتمع بتعاون كل الأطراف، ناهيك عن الحكومات التي عليها أن تُدرك أن قوتها تَنبع من قوة مثقفيها، الذين يعملون في مناخ من الحرية والمسؤولية والالتزام والكرامة المكفولة، فإذا شعر المثقف بتأمين مكانته الاعتبارية في المجتمع، فسيكون ذلك حافزاً قوياً له لمواصلة جهوده في المشاركة التثقيفية التنموية، معتزاً بسلطته «المعرفية والرمزية التي لا تقل أهمية عن السلطة التنفيذية أو القضائية، لأن للمثقف سلطة هو الآخر مادام الناس يقبلون به ويرجعون إليه في بعض القضايا والموضوعات لكونه محل ثقة»[1]، هذه الأخيرة ينبغي أن لا تُستغل وتوظَّف لتتحول إلى أداةٍ لتكريس التخلف، بل تكون عاملاً حاسماً في تثقف المجتمع وتنميته، ليواجه التحديات الجسيمة.

أخيراً لابد من تصحيح العلاقة القائمة بين الساسة والمثقفين، والتي يبدو أنها في أغلب البلاد العربية والإسلامية؛ إما علاقة انفصام، أو علاقة صدام: فإذا لم يتم النظر إلى هذه العلاقة في إطارها التكاملي غير الصدامي، وإذا لم يدعم الساسة العرب دور الثقافة والمثقفين في خلق مشروع تنموي، فسنظل نراوح مكاننا، وستزداد تبعيتنا للمجتمعات الأخرى، وسنجتر المقولات ذاتها حول الهوية العربية والوحدة والديمقراطية والتقليد والحداثة والتخلف والتنمية، دون أن ننتهي إلى تقديم حلول مقنعة قادرة على تحقيق طفرة نوعية بإمكانها وضع أمتنا العربية والإسلامية في الطريق الصحيح نحو التنمية التي هي أمل ومبتغى قادتها وشعوبها.

---

(١) مصير المجتمع المغربي، د. عبد الله حمودي، ص، ٢٨. دفاتر وجهة نظر، العدد، ٥- ٢٠٠٤ -المغرب.

٧- الثقافة الإسلامية: ترسيخ اللغة وتثبيت الهوية:

الثقافة ليست ترفًا فكريـًا أو شعوراً وجدانيـًا، بل هي تخطيط تقوم عليه السياسات والاختيارات الاقتصادية والقيم والأهداف التي يَبنى عليها النظامُ التربوي أهدافَه، وبالتالي فإن التعايش والتفاعل بين الثقافات، أصبح ضروريـًا لاستتباب الاستقرار والسِّلْم في العالم، لأن الصراع الثقافي قد يؤدي إلى تهديد السلْم في العلاقات الدولية، كما يؤدي إلى ضرب الاستقرار والسلام الأهلي داخل المجتمع الواحد، أما قيام حوار حقيقي بين الثقافات؛ فيتطلب الاعتراف المتبادل بينها والتوافق على قيم عالمية مشتركة، والثقافة العربية لكي تكون مقبولة في سوق القيم الثقافية العالمية أو يكون بينها وبين الثقافات الأخرى حوار حقيقي؛ فلا بد من أن تستند إلى قوة اقتصادية وسياسية، لأن الندية في الاقتصاد والأداء السياسي والتنظيم المتطور للمجتمع، شرط للندية الثقافية التي بغيرها لا يكون هناك حوار حقيقي[1]، غير أن الأمر لا يقف عند توفر هذه الشروط؛ بل لا بد من أن يتحرر الإنسان العربي والمسلم من عقدة النقص التي طغت حتى على العديد من المثقفين، خاصة مَن استهوتهم الثقافة الغربية وانبهروا بإنجازاتها المادية، وتناسوا أن الثقافة الإسلامية قادرة على أن تمنحنا بل وتمنح العالمَ نماءً وازدهاراً لا تكون فيه الغلبة لطرفٍ على طرف، ولا الهيمنة لأحدٍ على الآخر، عالَم لا يُغلّب جانبَ المادة والاستهلاك على القيم والأخلاق، في توازنٍ يحقق للإنسان سعادة حقيقية غير مزيّفة، تَوازن يُقرّ بأنه لا تنميةَ ثقافية شاملة خارج اللغة العربية، ذلك أن اللغة هي الهوية وكيان الأمة،

(١) مجلة الكلمة، مؤتمر دور التفاعل الثقافي في بناء السلام العالمي، عرض، د. تهامي دكير، العدد ٤٩، السنة ١٢- خريف ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م – مملكة البحرين.

وروح الانتماء للأرض والتاريخ والفكر والثقافة والحضارة، وبالتالي لا يمكن الفصل بينهما، إن وجود اللغة حية متداولة، يفيد حياة واستمرار الهوية، واستمرار هذه الأخيرة رهين بحياة ونماء اللغة، ذلك لأن «الهوية» في «مفهومها الشامل؛ قيمة جوهرية في حياة الإنسان بوصفه كائناً ثقافياً قبل أن يكون كائناً بيولوجياً، وجوهر الهوية الانتماء، وهو الذي به يفارق الإنسانُ آدميتَه الغريزية مرتقياً إلى آدميته المتسامية، والانتماء مضمون وإبلاغ، أما المضمون فعقيدة تَكفل له الإيمانَ وتَقيه شر الضياع في الوجود، وأما الإبلاغ فلغةٌ تؤَمِّن له التواصلَ الإنساني الخلاق، فإذا تعاقبت دائرتا الإيمان واللسان؛ كان الانتماء للتاريخ، والاستشراف للمآل، وبالتالي فكل قبول بتفتيت اللغة القومية هو خطوة أُولى حاسمة نحو قبول تفتيت الذات والهوية، فبقبول تفتيت السيادة تمَّ قبول تفتيت الأرض»[1]، وتلك هي الكارثة الكبرى التي لا تستطيع الأمة حينئذ أن تتفادى عواقبها الوخيمة التي لن تترك مجالاً إلا وجزَّأته، ولا مكسباً ثقافياً أو حضارياً إلا وطمسته، ليتلاشى بذلك كِيان الأمة ووجودها، فيصبح أثراً بعد عين، ولن يُجدي بعده أيُّ إصلاح أو ترميم أو تعديل.

فيجب أن يكون لدى الأمة الإسلامية وعْيٌ عميق بتكامل اللغة والهوية في ترسيخ وجود الأمة ونمائها؛ باعتبار جماع ذلك هو الشرط الأول في تأسيس مشروع تنموي شامل قائم على أسس متينة يمتزج فيها ما هو لغوي وفكري وثقافي وحضاري، ليُثبت حضوراً متميزا وفاعلا لهذه الأمة في مسيرة الحضارة

(١) العرب والانتحار اللغوي، د. عبد السلام المسدي، ص ٦١- دار الكتاب الجديد المتحدة – ط ١- بيروت ٢٠١١.

وانظر كتاب، السياسة للغوية في البلاد العربية، د. عبد القادر الفاسي الفهري، ط ١- دار الكتاب المتحدة – بيروت ٢٠١٣.

الإنسانية؛ فلا هوية بدون لغة، «لأن اللغة هي التي تختزن المشاعر الأولى، والأفكار الأولى، والتشكيلات الأولى للكون من حول الإنسان، وفيها ومن خلالها؛ يتشكل معنى ولفظ البهجة والحزن والانتصار والانكسار والكراهية والألم والسرور، ومن منظورها تتحدد مفاهيم المباح والمحظور والملاطفة والرضا والإنكار، وانفتاح أبواب الفهم أو انغلاق مفاتيحه، وإلى هذه المفاهيم الأولى ترتد أية مفاهيم تالية يمكن للإنسان أن يُحصلها من اللغات المكتسبة في مراحلَ تاليةٍ من العمر»[١]، فاللغة هي الانتماء والوطن والأرض والتاريخ والحضارة والحاضر والمستقبل، هي الأساس في قيام مشروع حضارة الأمة، إضافة إلى دعائم أخرى تتفاعل معها لتنتج من ذلك حضارتها، وتكفل استمرارها حيةً فاعلةً مؤثِّرة وليس متأثرة فقط، غير أن ذلك لا يفيد بالمقابل أنها تعكس فقط العقيدة والانتماء والثقافة والذاكرة الجماعية للأمة؛ بل إن ذلك يمتد إلى العمق الإنساني المشترك الذي جاءت الرسالة الخاتمة لترسخه وتؤكد عليه.

ولن نذكر هنا ما تتميز به اللغة العربية من خصائص معجمية وتركيبية وأسلوبية وبيانية وإعجازية وبلاغية بشهادة أهل الاختصاص في اللغات المقارنة[٢]، لكن حسبنا أن نتأمل قول الشاعر حافظ إبراهيم وهو يصف بعضاً من مزايا هذه اللغة العريقة، إذ يكفيها شرفاً أنها:

وسِعْتِ كتابَ الله لفظاً وغايةً ... وما ضِقْتِ عن آيٍ به وعِظاتِ

فكيف أَضيقُ اليومَ عن وصْفِ آلةٍ ... وتنسيقِ أسماءٍ لمختَرَعاتِ

---

(١) إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، د. أحمد درويش، ص ١٧، دار نهضة مصر – ط ١ – ٢٠٠٦ – مصر.

(٢) انظر ذلك بتفصيل في،السياسة اللغوية في البلاد العربية، د.عبد القادر الفاسي الفهري- مرجع سابق.

رَمَـوْني بِعُقْـمٍ في الشـباب ولَيْتَنـي عَقِمْـتُ فلـم أَجـزعْ لقـولِ عِـداتي
أنـا البحـرُ في أحشـائه الـدُّرُّ كـامِنٌ فهـل سـاءَلوا الغَـوَّاصَ عـن

هي درر كثيرة، جمعت بين الدقة والسَّعة والبيان والإعجاز والفصاحة على مر الأزمان، رغم ما تعانيه اليوم من تنكُّر واضح حتى من أبنائها، ممن خُدعوا بأوهام التحديث وانجرفوا إلى متاهات التغريب، بدعْوَى مُواكبة العصرنة، متجاهلين عظمةَ هذه اللغة وقُدسيتها، فهي لغة القرآن والعلم والفكر والثقافة والحضارة، جمعَت ما تَفرَّق في اللغات الأخرى، فكانت الأحقَّ بالعناية، والأجدرَ بالاهتمام والرعاية، مما يفرض علينا ونحن نتصدى لدعاة التغريب والاستئصال أن نُعيد لها مجدَها وقوَّتَها، كي نحفظ هذا القانونَ العربي الذي تمثله «ونُصلح الألسنةَ المائلةَ عنه، فيحفظ لنا طريقةَ الكتاب والسنة والاقتداء بالعرب في خطابها»[٢]، دون أن يفيد ذلك أيَّ انغلاق أو تعصب، مادامت هذه طريقة الحِفاظ على الهوية، وصيانة كيان الأمة وذاكرتها وتاريخها وحاضرها، بل ويساعد على استشراف مستقبلها الذي تعد اللغة من مقوماته الأساس بل الحاسمة في التصدي لدعاة التغريب.

إن قضية مواجهة موجات التغريب؛ تُعَد إحدى الشروط الحاسمة في تحقيق ثقافة التنمية ومواجهة الغزو الثقافي، إذِ التغريب في أبسط مفهوم له هو: «حَمْل المسلمين والعرب على قبول ذهنيةِ الغرب والتخلي عن الدعائم الأصلية التي تَفرض ذاتيةً خاصة وطابعاً مميزاً للإسلام وآثاره في الثقافة والاجتماع والاقتصاد والتشريع والتربية.

(١) ديوان حافظ إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة، ٢٠٠٧.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية جمع وترتيب، د. عبد الرحمن بن محمد بن القاسم، ٣٢/ ٢٥٥ – ط ٢ – مكتبة المعارف – الرباط ١٤٠١.

وفي الجملة فإن التغريب يستهدف إيجادَ شعورٍ بالنقص في نفوس المسلمين عامة، وذلك بإثارة الشبهات وتحريف التاريخ الإسلامي ومبادئ الإسلام وثقافته، وإعطاء معلومات خاطئة عن أهله، وانتقاص دوره في تاريخ الثقافة الإنسانية، وإنكار المقومات التاريخية والروحية التي تتمثل في ماضي الأمة، مع توهين القيم الإسلامية والغض من قدرة اللغة العربية وتقطيع أوصال الروابط بين العرب والمسلمين.

ومن أخطر مخططات التغريب: الحيلولة دون قيام وحدة الفكر التي هي مقدمة لوحدة الأمة، وبلبلة العقول والنفوس بعشراتٍ من المذاهب والدعوات، وتكريس الفوارق الثقافية والاقتصادية في الأمة الواحدة مما يحول دون قيام الوحدة»[1]، ولا أدَلَّ على ذلك من شيوع الدعوة للهجات العامية التي ينادي بها بعض المثقفين الأمازيغ والفرانكفونيين، خاصة في دول المغرب العربي، وهي دعوات ترمي إلى تفتيت هذه الدول انطلاقًا من التفتيت اللُّغوي والثقافي، حتى تظل الأمة تابعة خاضعة، ولم يَعد خافيًا على أحد مدى التغلغل الذي حققه دعاة التغريب من المثقفين العرب في الداخل والخارج، تحت مبررات مزيفة منها: التجديد، التحديث،المعاصرة بدايةً باللغة والثقافة، وصولاً إلى العقيدة، لتكتمل بذلك حلقةُ الهيمنة وتذويب الهوية الإسلامية، غير أن هذه الدعوات تواجَه الآن بصحوة إسلامية تكشف مخططاتهم وتُبرز أهدافهم الحقيقية، وتؤكد أن غاياتهم تماثل ما كان يطمح إليه الاستعمار القديم، بطرق مستحدثة وأهداف بقيَت ثابتة.

ولا بد في هذا الإطار من الإشادة بالجهود الخيِّرة التي تبذلها العديد من

---

(١) المستقبل يبدأ الآن، د. عبد القادر الإدريسي، ص ٧٢ – مطبعة النجاح الجديدة، ط ١ – الدار البيضاء ٢٠٠٣.

الهيئات والمؤسسات والمنظمات الإسلامية في سبيل حماية اللغة والثقافة والهوية والعقدية الإسلامية وثوابتها، من كل غزو ثقافي يستهدف كِيانَ الأمة ويضرب في العمق أقدسَ مقدساتها، ونعني بذلك: رابطة العالم الإسلامي، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وغيرهما من الهيئات والمنظمات والمؤسسات التي أخذَت على عاتقها مواجهةَ التغريب والغزو الثقافي والفكري واللغوي الذي ازدادت حِدَّتُه في السنوات الأخيرة في ظل العولمة، ويجب التركيز على تحصين اللغة العربية والثقافة الإسلامية من كافة أشكال الاختراق، ودعْم كل ما من شأنه تنمية هذه المقومات الأساس الحامية لثوابت الأمة دينياً ولغوياً وثقافياً وحضارياً.

خاتمة

نخلص مما سبق أن الثقافة الإسلامية تتميز بسمات عديدة، تؤهلها لمواجهة التحديات الكبرى المعاصرة، لأنها تقوم على الوحدة دون أن تنفي التنوع، فإذا كانت جذورها ثابتة، ففروعها متنوعة تنوُّع رحمةٍ وخصوبة ونماء، تَنبع من سُمو الإسلام وعالميته ورحمته التي تشمل الإنسانية كلها،كما أنها ثقافة حياة وعمل؛ لا تقف عند مستوى الخطاب، بل تتعدى إلى الإنجاز الذي يثبت التغيير نحو الأفضل؛من الوهم إلى الحقيقة، ومن الفوضى إلى النظام، ومن الجسد إلى الروح، ومن التشتت إلى الوحدة، وتُنَمِّي لدى الأفراد والمجتمعات مقومات الحكمة والرشاد والفهم المقاصدي في معرفة الأشياء وتقييمها، والعمل على هديها كلما تغيرت أعمالهم، فتنموَ ثقافتُهم ويتحصَّن سلوكُهم، وينضج فكرُهم، ليتعاونوا على إنجاز أعمال خالدة، وأفكار نيِّرة وثقافة راشدة، تجمع بين المصالح والمنافع والقيم، بين الروح والجسد، بين الفكر والعمل، بين التنظير والممارسة، وبالتالي بين ما يعكس ثقافة الأصالة وثقافة المعاصرة، والثوابت والمتغيرات، لتُشكّل من هذا المزيج ثقافةً حية نافعة، راسخة رسوخ الجبال، ممتدة إلى عَنان السماء، تضم كافةَ مناحي الحياة لغةً وفكراً وتصوراً ورؤية وتاريخاً، تراثاً ولباساً وأسلوبَ حياة، لا تتنكر لماضيها وقيَمها وثوابتها، وفي الوقت ذاته تعيش حاضرها بكل مسؤولية والتزام وتطلُّعٍ نحو المستقبل الذي يتطلب إرادة وإيماناً وطاقة وقوة ووحدة لبنائه؛ وفق رؤية إسلامية واضحة تجيب عن أسئلة وقضايا شائكة وتحديات معاصرة كثيرة، مثل: الموازنة بين الثوابت الأصيلة والمستجدات المعاصرة، والمحافظة على وحدة الأمة في انفتاح إيجابي على ثقافات الأمم دون استلاب أو تغريب،كي نضمن لثقافتنا الإسلامية الاستمرار والنماء، فهي التي كانت قدوةً للعالم بما

تتميز به من قيم حضارية، لا من خلال استيراد حلول جاهزة أو استنساخ تجارب معلَّبة منمَّطة من ثقافات مغايرة غريبة عن قيمنا، متعارضة مع ديننا، مستفزة لتقاليدنا ومشاعرنا، وإنما ببناءِ نموذجٍ ثقافي نابعٍ من هويتنا وعقيدتنا وذاكرتنا الجماعية التي تَشكَّلت عبر قرونٍ عِدةٍ من العمل والاجتهاد والتضحيات الجسام، لنحقق للثقافة الإسلامية استمرارها الإشعاعي والحضاري في ظل تحديات العولمة الجارفة، التي لم تعد تمهل الشعوبَ الضعيفة أو المستسلمة أو الخاضعة سياسيا أو اقتصاديًا أو ثقافيًا.

فلْنعملْ على تأسيس مشروع ثقافي إسلامي، نُثبت به أحقيتنا في الريادة العالمية، ونمحو به ما علِق بالمسلمين من صور سلبية لا تعكس حقيقة الإسلام الذي يُعلي قيمةَ العلم والعمل، ويبني الإنسان ليرسخ الحضارة ويتمسك بثقافة النماء والمعرفة والحضارة والقيم، غير أن الإجابة عن تلك الأسئلة يظل بدوره رهين توفر شروط أخرى، من أبرزها:

- التخلي عن التصورات الدخيلة عن ثقافتنا، الضارة بهويتنا وعقيدتنا، والتحلي برؤية إسلامية تنير لنا طريق التنمية الشاملة التي تنفع الأمة وتبعث فيها أمل التفوق والتقدم.
- تضافر جهود وطاقات الأفراد والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية؛ للنهوض بالثقافة الإسلامية وتنميتها ودعمها؛ لتؤدي دورها الحضاري المنوط بها في الحاضر والمستقبل.
- جعل الثقافة الإسلامية في كل البرامج والمخططات والمشاريع الآنية والمستقبلية، وعدم الاكتفاء بالنظر إليها كترف فكري أو عنصر إضافي أو تحسيني فقط.

- توجيه جهود المفكرين والمثقفين والباحثين؛ إلى تكوين معرفة واقعية صحيحة عن الغرب وكل ثقافات العالم، ومخاطبتهم بلغاتهم لنقدم لهم صورة صحيحة للإسلام والمسلمين وثقافتهم، وذلك بمعرفة ذواتنا أولاً ثم معرفة الغير، فلن نقدر على معرفة الآخر لو لم نتعرف إلى ذواتنا المعرفة الحقة التي تقر بالواقع كما هو لا كما نأمل فيه، ذلك أن الإقرار بالأخطاء أول شرط لتصحيحها، وبالتالي الانتقال إلى البناء والتنمية بما يخدم البلاد والعباد، وبذلك تتحقق للأمة الشروط الأولى للشروع في تأسيس مشروع ثقافي تنموي رائد واقعي قابل للتحقق، يتحرر من التفرق والأنانية والتمزق، لينخرط في«الأنا الكلية» التي تتجاوز الأنا الفردية التي تَحصَّن خلفها كلُّ قُطر عربي، فصارت عنواناً لثقافته وميسماً لفكره وحضارته، بعيداً عن مفهوم الأمة الواحدة التي تجمع وتوحد هذا التنوع الخصب في بوتقة واحدة، وتحت مظلة الإسلام وسماحة عقيدته ونُبل قيَمه وصِدق تعاليمه.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**
- أزمة العقل العربي، مناظرات بين د. فؤاد زكريا ود. محمد عمارة - ط١، دار نهضة مصر٢٠٠٣.
- إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، د. محمد درويش - ط١ - دار نهضة مصر - ٢٠٠٦.
- الأيديولوجية المستعارة، د. رضوان جودت زيادة - عالم الفكر، العدد ٤يونيو ٢٠٠٥،دولة الكويت.
- البداية والنهاية، ابن كثير - مكتبة المعارف -لبنان ١٤١٠ هـ.
- تجارب التنوير وإخفاقاتها في العالم العربي، د. أحمد الموصلي - عالم الفكر-العدد ٣- يناير- مارس ٢٠٠٣- دولة الكويت.
- التنمية من منظور المشروع الحضاري، د. نصر محمد عارف - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ٢٠٠١.
- الحداثة وانتقاداتها، إعداد وترجمة، د. محمد سبيلا ود عبد السلام بِنْعبد العالي -دار توبقال-المغرب- ٢٠٠٦.
- الحق العربي في الاختلاف، د. طه عبد الرحمن- المركز العربي الثقافي- بيروت- الدار البيضاء- ٢٠٠٢.
- الحوار الإسلامي الإسلامي، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث- ط١ ٢٠٠٤-بيروت.
- حوارات من أجل المستقبل، د. طه عبد الرحمن، دار الهدى - بيروت ٢٠٠٢.
- في الثقافة الإسلامية والآداب القرآنية، د. عبد الكريم غلاب، مطبعة النجاح الجديدة -ط١-المغرب١٩٩٢.

- مجموع فتاوى شيخ الإسلام بن تيمية، جمع وترتيب، د. عبد الرحمن محمد بن القاسم – ط ٢ – مكتبة المعارف – الرباط – ١٤٠١هـ.
- المستقبل يبدأ الآن، د. عبد القادر الإدريسي، مطبعة النجاح الجديدة – ط١ – الدار البيضاء–٢٠٠٣.
- مصير المجتمع المغربي، د. عبد الله حمودي،، دفاتر وجهة نظر، العدد، ٥ – ٢٠٠٤ – المغرب.
- من قضايا الإسلام والإعلام في الغرب، د. عبد الكريم بوفرة، سلسلة روافد، ط١ –وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية–دولة الكويت ٢٠٠٨.
- مؤتمر دور التفاعل الثقافي في بناء السلام العالمي، عرض د. تهامي دكير، مجلة الكلمة العدد ٤٩ – خريف ٢٠٠٥ – مملكة البحرين.
- نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة – بيروت.
- اليسار العربي وسوسيولوجيا الفشل، د. شوقي جلال، عالم الفكر – العدد ٣–٤ يونيو –١٩٩٨ – دولة الكويت.
- ديوان حافظ إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – ٢٠٠٧.
- ردٌّ د. محمد عمارة على د.فؤاد زكريا، ضمن كتاب أزمة العقل العربي، دار نهضة مصر – ط ١–٢٠٠٣.
- رصد الخواطر، أزمة الحضارة والمعاصرة، ضِمن الأعمال الكاملة، د. المهدي بعبود، مطابع أمريال–الرباط – ٢٠٠٥.
- روح الحداثة، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط ١ – بيروت – الدار البيضاء– ٢٠٠٦.
- سؤال الأخلاق، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي– بيروت– الدار

البيضاء-ط١-٢٠٠٠.

- السياسة اللغوية في البلاد العربية، د. عبد القادر الفاسي الفهري، دار الكتاب الجديد المتحدة- ط١- بيروت-٢٠١٣.
- العرب والانتحار اللغوي، د. عبد السلام المسدي، دار الكتاب الجديد المتحدة- ط ١ بيروت ٢٠١١.
- العمل الإسلامي المعاصر بين جدلية المرجع والواقع، د. جواد الشقوري، مجلة المنطلق الجديد، العدد ٥- صيف ٢٠٠٣- بيروت - ٢٠٠٣.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء- ط١-١٩٩٨.
- لماذا لا نربط بين النظرية والتطبيق، د. أحمد الخمليشي، منشورات الزمن.ط١-المغرب- ٢٠٠٤.

المراجع الأجنبية:

- Les 5 chantiers de l'Islam: Malek: chabel: paris ;2006.
- Manifeste pour un Islam de Lumières ;27 prostituions pour reformer l'Islam – Edition Hachette – Paris-2004.
- Jeune Afrique – Litelligent-N 2346-2347- 46 Année – du 25 -12-2002 au 07-01-2006-paris.
- Le surcout de Ramadan – Allal El Maleh- perspectives du Maghreb- N°7- Novembre 2005-Casablanca.